تغيّر منظور النقد تجاه ما تكتبه المرأة العربية

عائشة البصري: الكاتبات العربيات مطالبات بالكتابة دفاعاً عن حقوق المرأة

تظل غُربة النســاء واغترابها في الراهن أو الماضي موضوعا إشكاليا، في ظل الوقائع السياســية والاجتماعية الضاغطة في البُلدان العربية، وقد لا ينجح في ســبر أغواره سوى المرأة الكاتبة التي تُدرك عمق الغربة النفسية للنساء والجبهات المتعددة التي تناضل فيها المرأة. "العرب" حاورت الكاتبة المغربية عائشــة البصري حول أحدث رواياتها ورؤية المرأة الكاتبة المُغايرة للعالم.

هناك دائما رابط بين النص الأدبي وكاتبه

حنان عقيل
كاتبة مصرية

في أحدث أعمالها الروائية "الحياة من دوني"، تكتب الشاعرة والروائية المغربية عائشة البصري عن وقائع اغتصاب المرأة في الحروب، تدور أحداث الرواية في فترة زمنية واسـعة تمتد ما بـين 1937 و2012. تتحدث البصري عن الدوافع التي قادتها نحو كتابة هذه الروايــة، الفائزة بجائزة أفضــل رواية عربية في معرض الشــارقة الدولي للكتاب لعام 2018.

ثمة هواجس داخلية تخص الكاتب وأخرى خارجية تخص محيطه الاجتماعي والسياسي تبلورها الحساسية المرتفعة لدى الكاتب

تقــول البصري "كنــت أُتابع برنامجا وثائقيــا عن الطريقة التي تُســتقطب بها النســاء ويُجنــدن للذهــاب إلى ســوريا والعراق للجهاد بأجســادهن تحت اسم جهاد النكاح وكيف تُسبى النساء وتُباع. أثار الفيلم اســتهجاني وغضبي ودفعني للبحــث فــي المراجع عن أســود نقطة في تاريخ النســاء في القــرن الماضي فكانت النتيجة (مذبحة نانجينغ) وهي مدينة في شــرق الصين عرفت أبشــع مذبحة وعددا مهولا من حالات الاغتصاب والقتل أواخر ســنة 1937 في وقت قياســي (20000 حالة اغتصاب خلال ســتة أسابيع وفق وثائق صينية)".

رسالة الكتابة

تلفت عائشة البصري إلى أن موضوع روايتها "الحياة من دوني" يتطرق إلى ما تقترفــه الحروب من اغتصــاب، وتضيف "هــذا الموضوع فــرض عليّ خطا ســرديا يُركّــز علــى الصــين والفيتنام فــي زمن الحرب العالمية الثانيــة وفضاءات بعيدة عن العالم العربي، لكن أحداث الرواية لها ارتباط بالمغــرب، تبدأ من المغرب وتنتهي في المغرب. المشــترك الثقافي والتاريخي والسياســي والاجتماعــي بــين المغــرب والصــين ضعيف، لكن يظل المشــترك بين الشعوب هو الألم الإنســاني، إضافة إلى أن المغرب يحتضن جالية صينية مهمة ما أعطى مبررا ومجالا أوسع للتخييل".

هل يمكن اعتبــار كتاباتــك الروائية على وجــه الخصوص محاولة مســتمرة ومشروعا لدفع الظلم عن النساء، لاسيّما وأن الروايات الثلاث موضوعها النســاء بتنويعــات مختلفــة؟ تجيــب البصــري بــأن هيمنة موضوع المــرأة على أعمالها الأدبيــة، بمــا فيهــا القصــة القصيــرة والشعر، واهتمامها بواقع المرأة العربية على الخصوص شــيء بديهي، فالكاتبات مطالبات بالكتابــة عن واقع المرأة للرصد والإدانة والدفاع عــن حقهن في التواجد الثقافــي والاجتماعي والسياســي. ففي النهايــة نحــن نكتب دفاعا عــن قيم، وما الكتابــة الأدبيــة إلا رســالة عبــر آليات الكتابــة والتخييــل، رســالة تتغلغل بين الســطور، بعيدة كل البعــد عن التقريرية المباشــرة وهــذا من مســتلزمات الالتزام في الأدب، هو أدب يحمل رســالة وليست رســالة تســخر الأدب لحملها. مع ذلك لا أســتطيع أن أعتبر نفســي كاتبة نسوية، فتربيتــي السياســية في وقــت مبكر في حزب يســاري علمتني أننــي أنا والرجل معــا ضــد الأفــكار الظلاميــة والحروب والتمييز.

بناء الرواية

الكتابــة عن أحــداث تاريخية بعيدة زمنيــا وواقعيا من حيث أنهــا لا تعكس تاريــخ البلد الــذي تنتمي إليــه الكاتبة ربمــا هي مســألة تحمــل مــن الصعوبة الكثير. وهنــا تُبيّن البصري أن كتابــة روايتهــا "الحياة من دونــي" تطلبت مجهودا أكثر لابتعادهــا عن مُحيط الذات الكاتبــة، لكن يبقى التاريــخ فــي "الحياة من دوني" مادة من بين المواد الأوليــة للكتابــة مثلــه مثــل الذاكــرة والحلــم والطفولــة والصــورة لكــن الأســاس فــي الرواية هــو التخييل.

صحيح أن الرواية تشير إلى عدة أحداث تاريخية كالحرب العالميــة الثانية 1937–1945 والغزو الياباني للصين ســنة 1937 والحرب الهندوصينية 1946–1954، لكنها تظــل مجرد ظلال أو خيط خفيف ومرهف لأن المقصــود مــن الرواية ليــس تثبيت أحداث تاريخية عامــة، إنما الحديث عن مشاعر ومواقف شخصية نتجت عن هذه الأحداث لتصبح الرواية حكاية تلك الأنة الخافتة التي تطلقها امرأة مكلومة، حتى أنه من الممكن الاســتغناء عن ذكر أســماء الأحــداث وأرقام التأريخ ومــع ذلك يظل بناء الرواية متماسكا.

وتشــير الكاتبة المغربية إلى أن ثمــة هواجــس داخليــة تخــص الكاتــب وأخــرى خارجيــة تخــص محيطــه الاجتماعــي والسياســي تبلورهــا الحساســية المرتفعة لــدى الكاتــب، بالنســبة إليها فالموضوع الذي يشغلها هو الذي يحدد شــكل الكتابة ويقود النص نحو شكله النهائي، إن كان شعرا، قصــة قصيــرة أو رواية، فليســت هنــاك نيّة مُســبقة أو قرار يســبق العمل الإبداعي.

وتلفت إلى أنها خلال اشــتغالها على روايــة "الحيــاة من دونــي" تحدثت إلى نساء عايشن الحرب، وكذلك سعت لمعرفة وجهات نظر لنساء لم يعرفن الحرب، وهو ما ســيكون موضوعــا لكتــاب جديد لها عبارة عن شــهادات وحكايات عن الحرب جمعتها كمادة أوليــة لكتابة "الحياة من دوني" ارتــأت أن توصل هــذه الأصوات وهذا البوح المؤلم كما هو على لســان من عايشــنه مع إعادة صياغتهــا أدبيا، كما أنها تشــتغل كذلك على مشروع روائي لن يصدر في القريب لأنه يحتاج لوقت أطول.

ذات الكاتبة

ترى البصري أنه مؤخرا تغيّر منظور النقــد تجاه ما تكتبه المرأة نســبيا، نظرا إلى التراكم النوعي في إصدارات الكاتبات وما حققنه في السنوات الأخيرة، فلا أحد يجادل في قوة حضور الأصوات النسائية فــي المحافل الثقافية وفــي الجوائز، رغم أنهــا لا تُفضــل هذا التصنيــف، فالكتابة النسائية أغنت الساحة الثقافية العربية، والكتابــة الإبداعيــة فعــل غيــر منفصل عن الذات بالنســبة للمــرأة والرجل على الســواء، لكننــا ككاتبات عربيــات لدينا وضــع اعتباري مُختل مُلزمــات بالنضال علــى جبهتين: جبهــة الدفاع عــن الذات والدفاع عن الإنســان ككل، لهــذا فرؤيتنا لعالم أوسع وأشمل وأهدافنا أكثر نبلا.

هل ثمة مشــترك ما بينك وبين بطلات أعمالك الروائية؟ تجيــب البصري "هناك دائما رابط بين النص الأدبي وكاتبه مهما حاولنا الابتعــاد والتمويه. من الممكن أن نقول إن هذا الرابط يشــبه الحبل السري للمولود. هذا الحبل ينتهي دوره بالولادة لكن تظل الجينــات التي يرثها النص عن كاتبــه بعد النشــر. في 'حفيــدات جريتا جاربــو' بذلتُ جهــدا مضاعفا كــي أبعد شــخصيتي عن الشــخصيات النســائية الثماني، خصوصا عن شــخصية الكاتبة، لكن، الأكيد أن كل شــخصية أخذت ملمحا مني".

جودة النص

حصلــت البصــري علــى عــدد مــن الجوائز وفــي هذا الصدد تقــول "أراهن علــى جــودة النــص التــي لا تتحقق إلا بالتراكم، الأكيــد أن منح جائزة إلى مبدع أو مبدعة يشــكل تحفيزا نوعيا ملموســا وبغض النظر عما إذا كانت للجائزة قيمة مادية أو لا، فإن الجائزة تعبر عن نوع من الاعتراف بقيمة مــا ينتجه المبدع، إضافة إلى أن الجوائز تتحكم فــي ذائقة القراء. ومــن هنا تأتي أهميــة أن تتوفر للجوائز لجان أمينة وذات مصداقية".

وتتابــع "جائزة أفضــل رواية عربية للمعرض الدولي للكتاب في الشــارقة لها رمزيــة ثقافية مهمة، لأنهــا تُقدّم من ثالث أكبــر معــرض كتاب فــي العالــم وبوابة الانفتــاح علــى الثقافات العالميــة. أيضا، ســعدت من قبل بفــوزي بالجائزة الدولية للرواية كاتب ياســين عــن رواية 'حفيدات جريتــا جاربو وقد ســعدت بهذه الجائزة التــي تحمــل اســم أهــم الكتــاب العرب المغاربيين في القرن الماضي 'كاتب ياسين'، فكانت تشريفا للأدب المغربي ولجيلي على الأخص.

وفــي مجــال الشــعر فقد شــرفني أن أحظى بجائزة 'ســيمون لاندراي للشــعر النســائي' بباريس في دورتها الخامســة عشرة كامرأة مغربية وعربية تسعى نحو هذا الأفق المشــترك بين النساء في العالم، بمــا أن هدفي مــن كتابة الشــعر لم يكن، ومنذ البداية، هو السعي نحو أناقة اللغة وجمالية الصورة فقط، وإنما هو الســعي إلى نص إنســاني لنسج علاقات إنسانية بــلا حدود عقائدية أو سياســية، كما أنها كانت محفزا لي على الاستمرار في الاعتناء بالجانب الشعري لتجربتي الإبداعية الذي أهملته قليلا لصالح الرواية".

مدينة وشاعر وغياب مخاتل

شرف الدين ماجدولين
كاتب مغربي

تتملكني باستمرار فكرة أن المدن النائية، الموغلة في البعاد، تستعصي على الفهم، العادات والناس والجدران والساحات، يدثرها القصو بهالة الغرابة، وعند صدمة اللقاء تصدنا السحنات الصلبة، والملامح النحاسية، والانفعالات الحادة، والكلام الحريف... تلك كانت انطباعاتي الأولى عن مدينة "وجدة"؛ آتيها في سفر يكاد لا ينقضي، يهد البدن والوجدان، وحين التقاط الأنفاس، بعد عبور المفازات الصخرية، الحمراء، كأنما أولد من جديد، يتشربني إحساس الوجود في تخوم الدنيا، ألملم شظايا العين والذهن لاستيعاب الكون الآهل بعد أشواط اليباب.

قاسم مشترك يجمع بين من أعرفهم من الموجودين هناك، غلالة صمت تكسو الملامح، وولع باصطناع "وقار"، لا تفتأ تعرجات الكلام تسل ستائره. ورصانة مخاتلة تداري نزوعا متأصلا للدعابة، على النقيض من سجايا الجسد والملامح والقسمات. يبدو الطبع مكشوفا عند الوهلة الأولى، وضوح مطلق في بيان الرأي أو الموقف، ومجاهرة قاسية أحيانا بالرأي دون تليين أو مداراة.

استحضرت كل هذه الانطباعات وأنا أعيد تركيب صورة الشاعر محمد بنعمارة، ابن تلك المدينة القصية، بمناسبة التئام معرض الكتاب المغاربي بها هذا الشهر، بعد مضي أزيد من ثلاث عشرة سنة على غيابه، استعدت أول لقاء لي به: جسد جبار لم تأخذ منه سنوات العمر ولا مرارات العيش. بدت سحنته القمحية بغرتها الطافرة من أعلى الجبين، علامة إيمان راسخ بالباري برغم تكالب الخسارات. بينما يبدو سيل الكلام، عتبة غوص فطري في صدف الصداقات، دونما وجل ولا اشتراطات، ولا احتراز مسبق، كذلك الذي يسكن دواخل العديدين ممن يداورون هشاشتهم باصطناع الحذق.

كنت قد عرفته من قبل صوتا أثيريا، استضاف شعراء وكتابا كثيرين ممن أحب في "حدائق الشعر"، كما عرفته، كائنا ورقيا في دواوين "السنبلة" و"عناقيد وادي الصمت" و"نشيد الغرباء" و"مملكة الروح" و"الشمس والبحر والأحزان"...، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي باستمرار عن مغزى ذلك التساكن المفارق في عناوين أعماله بين عوالم الطبيعة والشجن، بين الثمار وانكفاء الروح، إلى أن لمسته في حضوره الشخصي، في الممارسة والكلام وإيماءات الجسد، كان مزيجا من روح الشاعر الدنيوي، المقبل على الحياة وعلى الناس، والصوفي المؤثر للوحدانية، المسرف في الانكفاء على أحزان النفس.

وأحسب أن صورة الشاعر محمد بنعمارة تجلت لي، على الدوام، بوصفها نوعا من الحضور الفطري المسكون بنزوغ الطفولة، انغمار تلقائي في المجالس، وطيبة في تلقي الآخر والإنصات إليه، ودماثة فياضة في الحوار، مهما يكن مزاج من يخاطب، ونفور غريزي من الجهامة، وبلادة الحس...، ولعلي لن أنسى ما حييت خفة ظله الممهورة بغير قليل من الجراة في جلسات السمر المنعقدة على هامش المهرجانات الشعرية المختلفة، التي لا تنتهي أطوار نزقها إلا مع خيوط الصباح الأولى، كان يصمد كأكبر جهابذة السهر، بدربة على رتق فجوات الصمت، وألمعية في سكب رحيق المرح في أتون السجال الخشبي، كما أذكر بكثير من الحنين شجاعته في البوح، وقدرته على الإفصاح. يبدو حينها صادما للكثيرين، لكن دون أن يترك الفجوة تتسع على الراتق. في ذلك السبت الحزين الموافق للتاسع من أبريل 2003، تحدث عن العراق الذي أحبه، بعد أن تجمدنا لساعات أمام الشاشة نتابع السقوط المريع لبغداد. لن أنسى أبدا ملامح الكلام الصامت في عينيه، ولا ظلال الدمع المكتوم، حاولنا أن ننسى، عبر التجوال في دروب المدينة العتيقة، كانت تنقلنا تفاصيل الكلام إلى التعليق على المعمار والألوان المستعملة في طلاء الواجهات وهندسة الأزقة، بينما النسمات الباردة المنبعثة من أرضية الممرات الضيقة، ممتزجة بحرارة التحايا الموزعة بين القادمين والمغادرين من المشاركين، ترجعنا إلى صمت دواخلنا الموجوعة بالخراب البغدادي. وسرعان ما تستكين الأحشاء إلى فجوات الثرثرة الموهمة بالنسيان.

علاقة ملتبسة بين المبدع والمدينة (لوحة للفنان نجيب بالخوجة)

في مساء ذلك اليوم قرأ محمد بنعمارة هجائية جهيرة لهزائمنا المتكررة، نفذت كلماته حادة إلى الأعماق، تجاوبت مع إيقاع التنفس في القاعة المزدحمة بالحضور، كان الصمت مطبقا بين المقاطع، الكل يداري أحاسيس القهر واللاجدوى، وتنطق النظرات بارتجافات الجوف البارد برغم سخونة الأجواء. في تلك اللحظة التمعت في ذهني العلاقة الخفية التي تجمع بنعمارة بعبدالوهاب البياتي، ذلك الإعجاب الكبير الذي يكنه الشاعر المغربي لنظيره العراقي الموزع بين المنابذ، ليس في حدودها الشعرية فقط، وإنما في عمقها الوجودي؛ حينها تخايل إلي بنعمارة نموذجا للوجود في منفى الداخل، فليس المنفى حالة فعلية فحسب، بل هو حالة استعارية أيضا بتعبير راحل إدوارد سعيد، "هي حالة انعدام التكيف مع المجتمع تكيفا تاما"، حيث تضحى الوحدانية الموحشة رديفا لتواصل مفقود، ولتنابذ مطرد بين الذات المبدعة ومحيط غربتها "الأليفة".

إن إحساس الشاعر المنفي لا يمكن أن يكون مجرد شعور بالتباعد الحسي إزاء أصل مفقود، سواء كان فضاء، أو محيطا بشريا، أو سننا مشتركا؛ كما يستحيل أن يضمن تماهيا، ما، مع سياق يفترض فيه أن يكون مؤقتا وعابرا. إن المنفى يكثف من إيقاع التوتر الناجم عن إحساسي الاقتلاع واللاانتماهي، ويجاوزهما في آن، ليتحول إلى انتماء عاطفي إلى عالم يلتبس مغزاه ومداه حتى لدى المبدع المعني، إنه بالأحرى مسوغ السؤال الدائم الذي يجعل من الكتابة سفرا للبحث عن المعنى، وقلقا شبيها باللعنة القدرية التي تطغى لتختصر كنه الحياة في منطق الشاعر المنذور للتيه والرحيل: لغة وخيالا وارتحالا جسديا.